علاقة الإقلاب بالإخفاء

إن بين الإقلاب والإخفاء الشفوي علاقة لصيقة من حيث النطق والقراءة على الصحيح من أقوال أهل العلم قديمًا وحديثًا ، وفيما يلي تفصيل لطيف حول هذا الأمر ، فأقول ومن الله العون والتوفيق :

إن اختلاف العلماء حولهما يدور بين إطباق الشفتين ، وترك فرجة بينهما ، فمن القراء من يجافي بين شفتيه عند النطق بالميم ، ثم يطبق شفتيه إذا انتقل إلى نطق الباء بعدها ، ومنهم من لا يجافي ؛ بل يطبق شفتيه للميم والباء دون كز وضغط على الشفتين .

وفي الحقيقة عند النظر في كتب العلماء القديمة – على ما اطلعت عليه ، أو اطلع عليه كثير من علماء هذا الفن – لا نجد من يشير إلى إطباق الشفتين عند النطق ، بل نجد بعض العلماء من ينص على انطباق الشفتين للصوتين معًا ، فقال ابن غلبون رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (الميم مع الباء مخفاة لا مدغمة ، والشفتان أيضًا ينطبقان معهما) [التذكرة ٩٢] ، وقال الإمام الهمام أبو عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (فعلماؤنا مختلفون في العبارة عنها معها ، فقال بعضهم : هي مخفاة لانطباق الشفتين عليهما ، كانطباقهما على إحداهما) [التحديد ١٦٦] ، وقال الإمام ابن الباذش رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (إلا أن يريد القائلون بالإخفاء انطباق الشفتين على الحرفين انطباقًا واحدًا ، فذلك ممكن في الباء وحدها ، نحو : { أكرم بزيد }) [الإقناع ١٨١/١] ، وقال الإمام العلم ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (ثم إن الآخذين بالإشارة عن أبي عمرو ؛ أجمعوا على استثناء الميم عند مثلها وعند الباء ، وعلى استثناء الباء عند

مثلها وعند الميم ، قالوا : لأن الإشارة يتعذر في ذلك من أجل انطباق الشفتين) [النشر ٢٩٧/١] ، وأختم هذه الأقوال بقول الإمام المالقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وحقيقة القلب هنا : أن تلفظ بميم ساكنة بدلًا من النون الساكنة والتنوين ، وتتحفظ من سريان التحريك ، ومعيار ذلك : أن تنظر كيف تلفظ الميم في قولك { الحمد – الشمس } ، فنجد الشفتان تنطبقان حال النطق بالميم ، ولا تنفتح إلا بالحرف الذي بعده ، وكذا ينبغي أن يكون العمل فيها قبل الباء ، فإن شرعت في فتح الشفتين قبل تمام لفظ الميم سرى التحريك إلى الميم ، وهو من اللحن الخفي الذي ينبغي التحرز منه ، ثم تلفظ بالباء متصلة بالميم ، ومعها تنفتح الشفتان بالحركة ، وليحرز عليها ما تستحقه من الشدة والقلقلة) [الدر النثير ١٤٠/٣] .

وعند المحققين : أنه لا فرق في الحديث بين الإقلاب والإخفاء ، فحديثهم حوله سواء ، يذكر مثل هذا الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (فإن النون تنقلب ميمًا وتصير في اللفظ كقولك : { مِمْ بَعْد – مِمْ بُيُوتكم – فَامْبَجَست منه – أَمْبِئوني } وكذا سائرها ، كما تنقلب في : { عَنْبَر – مِنْبَر } ، ثم بعد قلبها ميمًا يتحول اللفظ إلى الإخفاء ؛ لأن حَظَّ الميم إذا سكنت أمام الباء الإخفاء ، وغنة النون والميم عند الباء تشتبه ، فلا يوجد في اللفظ فرق بين قوله : { أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ – أَم بِهِ } ، وبين قوله : { أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ – أنبِئُونِي } ، سواءً كان ما قبل الباء نونًا أو ميمًا ؛ لا فرق بينهما ، كله في اللفظ سواء) [الموضح في التجويد ١٥٧] .

إن الإطباق الذي نقصده هنا ، هو : إطباق الشفتين بعضهما على بعض خفيفًا سهلًا من غير مبالغة ولا كَزٍّ لهما ، قال النابلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وليحترز

القارئ عند التلفظ بالإقلاب من كز الشفتين على الميم المقلوبة في اللفظ لئلا يتولد التشديد من كزهما ، فيتلطف بسكون الميم) [كفاية المستفيد ورقة ٤ صفحة ٧] .

وبيان ترك الكَزِّ بينه المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جهد المقل ، قال : (وبالجملة إن الميم والباء يخرجان بانطباق الشفتين ، والباء أدخل وأقوى انطباقًا ؛ كما سبق في بيان المخارج ، فتلفظ بالميم في : { أَن بُورِكَ } بغنة ظاهرة وبتقليل انطباق الشفتين جدًّا ، ثم تلفظ بالباء قبل فتح الشفتين بتقوية انطباقهما ، وتجعل المنطبق من الشفتين في الباء أدخل من المنطبق في الميم) [جهد المقل ٢٠٢] ، وقوله (جدًّا) مقارِبة لإطباق الشفتين من غير كَزٍّ ، على ما يوافق النطق الصحيح ، والتجربة خير برهان ، فليعلم !!

إن غالب العلماء المتقدمين والمتأخرين بل إن لم يكن إجماعًا قالو : بإطباق الشفتين عند التقاء النون أو الميم بالباء ، ولولا طول المقام لذكرت أقوالهم ، متصلة مبيَّـنة ، وما ذكرته عن المحققين من أهل العلم فيه غنية بإذن الله ، كيف لا ؟! والمنقول عنهم هم ابن غلبون والداني والمالقي وابن الجزري والقرطبي وابن الباذش رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، وهم من هم !

ثم إني أعرضت صفحًا عن الحديث في مذهب من قال بترك فرجة عند التقاء النون والميم بالباء ؛ لقلة من قال به ، ولأنه هو القول المرجوح على الصحيح ، ولأن غالب من يقول بالفرجة يكاد ينطبق أداؤهم له على ما بيناه من القول بالإطباق ؛ إذ قولهم يدور حول وجود فرجة خفيفة جدًّا أو

صغيرة جدًّا تكاد الشفتان أن تنطبق فيها ، وكل ما ورد عنهم لم يكن موجودًا في كتب المتقدمين ، ولم يرد عنهم القول بذلك ، وهم أهل العلم السابقون به المشهود لهم بذلك .

وهناك نقطة مهمة حول هذا ؛ وهو : أنه مع ما أثبتناه ورجحناه إلَّا أنه لا ينبغي لطلبة العلم الفضلاء ، والإخوة القراء الكرماء ؛ أن يجعلوا هذا الأمر سببًا للخلاف والحقد ، ولا بابًا للشقاق والحسد ، إذ إن كل طالب علم مقيدٌ بما تلقى وأخذ ، وقولنا بالإطباق لا يجعلنا أن نمحو القول الآخر بترك فرجة عند النطق بالإقلاب والإخفاء ، كيف لا ؟! والخلاف في هذه المسألة مبني على فهم ما يُقْرأُ من نصوص المتقدمين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ، وعلى ما يتلقاه كل طالب على شيخه ، ولا تثريب أبدًا على من أخذ عن شيخه بأحد القولين ، وتبقى الأمانة العلمية بأن تفتي في هذه المسألة حسب ما تلقيتَهُ وما ترجح لديك بعد بحث الأقوال ، وكلامي هذا موجه إلى من وفقه الله ووصل إلى درجة الإقراء والتعليم .

وليتق اللّه أولئك الذين جعلوا مثل هذا الاختلاف شرارة خطيرة لخلق نزاع قد يصل إلى النيل من أعراض إخوانهم ، واللّه المستعان !

خطه ببنانه ، وحفظه في جنانه ، الفقير إلى توفيق ربه وامتنانه

منديل بن محمد بن عبدالله آل قناعي الفقيه